الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية – الجزائر
كلية الآداب واللغات

مجلة دولية أكاديمية علمية محكمة

تصدر عن مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي
بالجنوب الجزائري

جامعة غرداية- الجزائر

شوال 1437هـ/ جويلية 2016م

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

جامعة غرداية

الموقع الالكتروني
www.univ-ghardaia.dz

رقم الإيداع القانوني: 9857

ردمد: ISSN: 2477

المطبعة العربية
11 نهج طالبي احمد - غرداية
الهاتف / فاكس: 53 36 88 029
المنطقة الصناعية: 029272424

مدير المجلة

أ/ د. بلخير دادة موسى

رئيس التحرير

أ/ د. عاشور سرقمة

نائب رئيس التحرير

د.يحيى حاج امحمد

لجنة التحكيم

الأستاذ : جهلان محمد
الأستاذ : خرازي مسعود
الأستاذ : عبد المالك سمير
الأستاذ : قروي مصطفى
الأستاذ : أولاد علي معمر
الأستاذ : عبد الحاكم سليمان
الأستاذ : برجي عبد القادر
الأستاذة : برارات عائشة
الأستاذة : رزاق فاطمة
الأستاذ : بن ساسي محمود
الأستاذ : بالحسن محمد فؤاد
الأستاذة : رقاب كريمة
الأستاذة : مصيطفى عقيلة
الأستاذ : شنين مهدي عز الدين

البريد الإلكتروني للمجلة

revue.assiaq@gmail.com

كل الحقوق محفوظة

النقد الذاتي عند الصوفية

الباحث: حسين عمر حاج عيسى
كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن.

ملخص البحث

البحث بعنوان: النقد الذاتي عند الصوفيَّة، هدفُه الأساسي الكشفُ عن حركة النقد الذاتي عند الصوفيَّة، وبالتالي معرفة العقائد والأخلاق التي أقرَّها العلماءُ التابعين للتصوُّف، ومعرفة العقائد التي وجهوها أو أبطلوها لضلالها على مسلك الشريعة السمحاء.

وباستخدام الباحث للمنهج الاستقرائي، توصَّل إلى نتائج هي:

1. تمتلك فرقة الصوفيَّة منهج النقد الذاتي في كلِّ من ينتمي إلى طريقتها، فتقرُّ وتؤكد على ما يُناسب الشريعة السمحاء، وتصحِّح وتنهى عن كلِّ ما يخالف دين الله عزَّ وجلَّ، وبالتالي فإنَّ هذا النقد الذاتي يحسب لها، ويجعلها دائما مقياسًا للجانب الرُّوحي في الإسلام، ومثالا للمسلم الذي يحبُّه الله ورسوله والمؤمنين.

ومن هذا نقول بأنَّه في البحث العلمي ينبغي أن نتناول أي فرقة أو أي طريقة كالصوفيَّة من مصادرها الأساسيَّة، ومن علمائها الربَّانيين الذين اتَّخذوا القرآن والسنَّة دليلاً لهم في عقائدهم وأخلاقهم.

عقائد الصوفية وأخلاقهم لها مصطلحات مميِّزة خاصَّة بهم، «كالسماع» و«الوجد»، «الفناء» و«البقاء»، و«الكشف» و«المشاهدات»، و«الحلول»، وغيرها، وكان لكبار العلماء دورٌ هامٌّ في توجيه وتصحيح هذه العقائد فيما خالف فيها شرع الله، ومن هذا نقول بأنَّ ما أقرَّه العلماء الأجلاَّء فهو من الشريعة السمحاء ولو اختلفت المصطلحات، فالمدلول واحدٌ، أمَّا ما خالف الشريعة فإنَّ العلماء الصوفيِّين أنفسهم قاموا بردِّها وإثبات فسادها.

مُقَدِّمَة:

من المعلوم أنَّ الدين والشريعة ضرورةٌ للبشرية قاطبة في مختلف مراحل تاريخها، منذ أبينا آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك أنَّ الإنسان يحتاج إلى من يرشده إلى السبيل السوي في دنياه، ويعرِّفه بنفسه وبغايته واليوم الآخر، يحتاج إلى من يُجيبه على أسئلته الفطرية التي جُبل عليها.

ومن سنن الله العديدة في خلقه، سنَّة الاختلاف في العديد من الأمور، حتَّى في الدِّين الواحد، فترى فيه مذاهب شتَّى، وهذا من صميم حكمة الله تبارك وتعالى ورحمته؛ إذ لا يمكن أن يكون الناس كلُّهم أمَّة واحدة، في التفكير والتصرف، فكان الاختلافُ بحقٍّ رحمة على البشرية.

"الصوفية"، اتجاهٌ وطريقةٌ من الطرق المشتهرة في الدين الإسلامي، سوف تكون موضوع بحثنا إن شاء الله، حيث سننقِّب عن النقد الذاتي عند أصحاب هذه الطريقة.

أهمِّية الموضوع ستصبُّ إن شاء الله في المجالين العلمي والعملي، أمَّا العلمي فإننا سنثري المجال المعرفي بمزيد من الدراسات المنهجية العلمية المنصفة، وخاصة في جانب الفرق والعقائد. أمَّا المجال العملي فإننا سنستفيد جميعا من الجوانب الإيجابيَّة لفرقة الصوفيَّة، وتكون بمثابة مرجعيَّة روحيَّة فيما لم يخالف الشريعة السمحاء.

لعلَّ السؤال المهمَّ والقضية الأساسية في موضوع بحثا هذا، هل للصوفيَّة نقدٌ ذاتي؟

ومن هذا السؤال الأساسيِّ، نطرح أسئلة فرعية فنقول:

ما هي العقائد الصوفيَّة التي تبنَّاها علماء الصوفيَّة السُّنِّيين الأجلاَّء؟ وما هي العقائد التي نبذوها رحمة الله عليهم؟

لكلِّ عمل علمي غاية كُبرى وأهدافٌ سديدة، أمَّا هدفي من بحثي هذا فهو أولا أن نبحث عن النقد الذاتي عند الصوفيَّة، وبالتالي نتعرَّف على العقائد الصوفيَّة التي أقرَّها علماء الصوفيَّة السنِّية، وأن نتعرَّف على العقائد الصوفيَّة التي ابتدعها بعض من المتصوِّفة، وردَّ عليهم العلماء الأجلاء، فنأخذ ما صفا، وندع ما كدر، حتى نقتدي بهم، ونتَّبع سبيلهم، وننتفع بعلمهم، ونتقرَّب إلى الله بها، وغايتنا في ذلك كلِّه، رضوان الله تبارك وتعالى.

أهمُّ مصطلح في دراستنا هذه، ينبغي أن نُعرِّفه هو: "الصوفية"، أمَّا المصطلحات الأخرى والمتمثلة في العقائد والأخلاق التي تناولناها في هذا البحث فسيتم تعريفها ضمنيا أثناء الشرح والتحليل.

أثناء قراءتي للإحياء، أورد الغزالي عن عبد الله بن علي تعريفا للصوفية إذ يقول: «الدخول في كلِّ خلق سني، والخروج عن كل خلق دَنِي».

ثم عرَّف الغزالي الصوفيَّة بعد أن أورد العديد من التعريفات المختلفة والتي تصب في فكرة واحدة فيقول:

«الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية؛ لا يزال يُصفِّي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوامُ افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر، وكلَّما تحرَّكت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفرَّ منها إلى ربه... وهذه القواميَّة لله على النفس هو التحقق بالتصوف... ولابد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقُّد لمواقع إصابات النفس، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع المتفرق في الإشارات»[1].

ومن أجلِّ التعاريف: ما أورده عبد القادر الجيلاني الحسني حيث يقول:

«الصوفيُّ من كان صافيا من آفات النفس، خاليا من مذموماتها، سالكا لحميد مذاهبه، ملازما للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق، وقيل التصوُّف: الصدقُ مع الحق، وحسنُ الخلق مع الخلق»[2].

هناك بعض الدراسات المنهجيَّة السابقة في التصوُّف، ولكنها قليلة، باعتبار وجود الكثير من الدراسات غير المنهجية، ومن الدراسات والكتب التي اطلعتُ عليها:

- «**جهود علماء السلف في الردِّ على التصوف**»: داود علي الفاعوري (2003).
- «**فلسفة التصوف من خلال النشأة والتطور**»: داود علي الفاعوري.
- «**المدرسة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية**»: يوسف خطار محمد(2009).
- «**موقف الإمام ابن تيمية من التصوُّف والصوفيَّة**»: أحمد بن محمد بناني.

هذا ولقد اتَّبعت في بحثي المنهج الاستقرائي، بحيث أنقِّب عن النقد الذاتي لعلماء الصوفيَّة في بعض العقائد، لأعمِّم حكم النقد الذاتي عند هذه الطريقة، ونُدلي برأينا الشخصي في هذا البحث، ونسأل الله التوفيق والقبول والنفع.

وفيما يخصُّ الخطَّة المتبعة في البحث، فإنِّي قسَّمت البحث إلى مبحثين رئيسين؛ المبحث الأوَّل حول أهم عقائد الصوفيَّة في كتبهم، أمَّا المبحث الثاني فخصصته للنقد والتوجيه الذي أورده العلماء حول هذه العقائد والسلوكيَّات التي يتبَّناها الصوفيَّة.

أهمُّ المراجع والمصادر التي اعتمدت عليها هي:

«صحيح البخاري»، و«إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، و«فتاوى ابن تيمية»؛ و«الرسالة القشيرية» للقشيري، و«اللمع» لأبي

سراج الطوسي، و«سلوك العارفين» للسلمي؛ و«طبقات الصوفية» لمحمد النيسابوري، و«كشف المحجوب» للجويري.

المبحث الأول: أهم عقائد الصوفية في كتبهم:

من أصول البحث العلمي أن نرجع في أي موضوع إلى مصادره قبل مراجعه، وبالخصوص عندما يتعلَّق الموضوع بالعقيدة، فكثيرًا ما ظُلمت فرقٌ ومذاهب، وحدثت فتنٌ كبرى ومفاسد ومظالم، بسوء التفكير المنهجي، لذلك ارتأينا أن نتناول في المبحث الأول بعض أهم العقائد والسلوك عند الصوفية من خلال كتبهم أنفسهم، ثم نتناول في المبحث الثاني حركة النقد الذاتي عندهم، فتكون الدراسة مبنية على طرح واستقصاء علمي صحيح.

لعل من أهم هذه العقائد: الزهد، الفناء والبقاء، السماع والوجد، الكشف والمشاهدات، الحلول.

المطلب الأول: الزهد

أورد الكثير من أهل الصوفية تعاريف مختلفة للزهد، وكلٌّ يدلي بما يدين به، وهذه بعض التعريفات التي أوردها القشيري في رسالته؛ ومنها نتعرَّف عن الاتجاه العام الذي يسلكه الصوفية في الزهد.

قال به أبو سليمان الداراني: «**الزهد تركُ كلِّ ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى**».

وقال الحسن البصري: «**الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها ومن فيها**».

وقال عبدالواحد بن زيد: «**الزهد ترك الدينار والدرهم**».

وقال عبد الله بن المبارك: «**الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر**».

وقال رويم: «**الزهد هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب**».

وقال يحي بن معاذ: «**لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعزٌّ بلا رياسة**»[3].

اختلف مفهوم الزهد عند كبار الصوفية، فمنهم من يرى أنَّه ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى، وآخر يرى أنه بغض أهل الدنيا ومن فيها، ومنهم من يرى أنه ترك الدينار والدرهم، وآخر يقرر أن الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب. وسنقوم بمناقشة هذه الآراء في المبحث الثاني.

ويقول صلاح الدين التيجاني: «**الزهد في الشيء، هو الزهد في الميل إليه بالمحبة، بغير إذن من الله تعالى لا الزهد في إمساكه**»[4].

وكأن صلاح الدين التيجاني يفرِّق في الزهد بين الميل إلى الشيء بالمحبة، وبين إمساكه، فيقرر أن الزهد هو الزهد في الميل إليه بالمحبة بغير إذن من الله تعالى، مما يعني أنَّ ما هو داخل في دائرة المشروع فلا يجوز الزهد فيه.

ومن باب الزهد في الدنيا عند بعضهم، ترك الزواج، والمال والأهل؛ «**سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال: الصبرُ عنه خير من الصبر عليهن؛ والصبر عليهن خير من الصبر على النار**». وقال أيضا: «**الوحيد**

يجد من حلاوة العمل، وفراغ القلب، ما لا يجد المتأهِّل» وقال كذلك: «**ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو عليك مشؤوم**». وقال الحسن رحمه الله: «**إذا أراد الله بعبد خيرًا، لم يشغله بأهل ولا مال**»[5].

في كتاب الفتوحات الربانية، يتحدث ابن عربي عن الزهد قائلا:

«**الزهد لا يكون إلاَّ في الحاصل في الملك، والطلب حاصل في الملك؛ فالزهد في الطلب زهدٌ. لأنَّ أصحابنا اختلفوا في الفقير الذي لا ملك له، هل يصحُّ له اسم الزاهد أو لا؟ قدم له في هذا المقام، فمذهبنا أن الفقير متمكِّن من الرغبة في الدنيا والتعمل في تحصيلها، ولو لم يحصل فتركه لذلك التعمل، والطلب والرغبة عنه يسمى زهداً بلا شك، وذلك الطلب في ملكه حاصل فلهذا حدَّدناه بما ذكرنا، ولقد فاوضت في هذه المسألة جماعة من أهل الله، فأكثرهم قال بقولنا وسبب ذلك أن صاحب الذوق، لابد أن يرى لتركه طلب الدنيا والرغبة فيها أثراً إلهياً في قلبه**»[6].

ابن عربي في كلامه هذا حصر الزهد كثيرًا، لحتى لا يجد الفقير شيئا يمكن طلبه من الدنيا، حتى يسمى زاهدًا.

نلاحظ أن الزهد عند إبراهيم الداراني إن صح عنه هذا الكلام في النكاح هو الصبر عنه، والاشتغال بالعبادة فقط، ولا ينبغي أن يكون أي شيء يشغل العبد عن عبادة الله تعالى، حتى ولو كان حاجة ضرورية في نفسه مثل الزواج، وهي في الوقت نفسه مما شرعه الله تبارك وتعالى في الإسلام، فمثل هؤلاء الزهَّاد يعتقدون أنهم حين يحرمون أنفسهم من

ملذات الحياة الدنيا ولو مما أحله الله وشرعه، فإنهم من التقوى والقرب والزهد بمكان.

قال أبي سراج الطوسي: «**الزهد مقامٌ شريف، وهو أساس الأحوال الرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة.... والزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره**»[7].

أبي سراج الطوسي يرى أنَّ الزهد مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل... ثم يقول بأنَّ حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فيها رأس كل خير وطاعة، ويقرر أخيرا بأن الزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره!!. فما لم يكن الإنسان فقيرا في الدنيا فلا يعني أبدا أنه من الزاهدين، لأن كل ما في الدنيا من زخرفها ومن خطيئاتها، ومن فتنتها، وكل ما فيها يبعد عن الله، ولا شيء فيها يصلح للعبادة والقرب، لذلك ينبغي الانقطاع تماما إلى العبادة المحصورة في الصلاة والصوم والذكر، والصمت عن مخالطة الناس وعشرتهم!!.

المطلب الثاني: الفناء والبقاء

يقول القشيري: «**أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به.... فمن ترك مذموم أفعاله**

بلسان الشريعة يقال: إنه فنى عن شهواته. وإذا فنى عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته.

ومن شاهد جريان القدرة في تصاريف الأحكام، يقال فنى عن حسبان الحدثان من الخلق فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق.

ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا؛ ولا رسما ولا طللا؛ يقال: إنه فني عن الخلق وبقي بالحق﴾[8].

هنا يقرِّر القشيري أن الفناء يقصد به ترك كل ما حرم الله عز وجل، وترك معاشرة الناس والعيش معهم، والاكتفاء بقرب الله جل جلاله، في زاوية من الزوايا، والاعتقاد بأن كل تصرف إنما هو من الله جل جلاله، ولا قدرة للعبد ولا مشيئة له، إنما كل شيء من الله وبالله، فالبقاء معه فقط؛ ومن البقاء بقاء الصفات المحمودة به، وفيه، والفناء فناء العبد من الأوصاف المذمومة، وفناء مشيئة الإنسان.

ذكر الطوسي أسباب الذين غلطوا في فناء البشرية فقال : «**أمَّا القول الذين غلطوا في فناء البشرية: سمعوا كلام المتحققين في الفناء، فظنوا أنه فناء البشرية، فوقعوا في الوسوسة: فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أنَّ البشرية هي القالب، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الإلهية**»[9].

يعتقد بعض الصوفية أن الفناء، فناء البشرية بمعنى القالب والجانب المادي الجسماني في الإنسان، لكي تكون موصوفا بصفات الإلهية ولا تفنى، ينبغي أن تكون زاهدًا، بترك الطعام والشراب، والانقطاع إلى العبادة الخالصة حتى لتصبح كلّ صفاتك مجردة من صفات البشرية، متحققة بالصفات الإلهية من أجل ضمان البقاء.

«**فالفناء: هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز؛ فناءً عن الأشياء كلها شغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: "ما أبالي امرأة رأيت أم حائطا"، والحق يتولَّى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظا فيما لله عليه، مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل (وهو: العصمة)، وذلك معنى قوله ﷺ : «كنت له سمعا وبصرا»، والبقاء الذي يعقبه: هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله**»[10].

يذكر أبو بكر الكلاباذي أن من معاني الفناء، «**ترك كل شيء من الدنيا لله تعالى، فلا يرى الفاني إلا الله تعالى، أما ما سواه من أي شيء في الدنيا فلا يبالي به، ويحسب أن الله يتولى أمره كله، فيصرفه إلى عبادته فقط**».

المطلب الثالث: السماع والوجد

السماع عند الصوفية يُقصد به ما يسمع، وطبقات السماع عندهم قسمان: منهم طائفة اختاروا سماع القرآن الكريم، وأخرى اختارت سماع القصائد والأبيات من الشعر.

«ومعنى "الوجد": هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله ﷻ».

قالوا: «وهو سمع القلوب وبصرها؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج: 46) وقال: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق: 37) فمن ضعف وجده تواجد..

والتواجد: ظهورُ ما يجد في باطنه على ظاهره، ومن قوى تمكن فسكن؛ قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: 23)»

قال النوري: «الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح: طربا أو حزنا عند ذلك الوارد»[11].

«فمن اختار سماع القرآن اختاره لما ذكر من بعض الآيات الكريمات كقوله عز من قائل:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد: 28) ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ (المزمل:4) ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: 23) وقوله:﴿ٱلَّذِينَ

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ ۝٢﴾ (الأنفال:2) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۝١٨﴾ (الزمر:18).

والمعوَّل عند استماع القرآن حضورُ القلب، والتدبر والتفكر والتذكر، وعلى ما يصادق قلبه عليه من قراءته فيكون الغالب على وقته في استماعه للقرآن، فإذا لم يكن له حال ولم يكن في قلبه وجد يطرقه ما سمعه من القرآن، ويوافقه ويزعجه، فمثله ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ۝١٧١﴾(البقرة:171).

وأمَّا الطبقة التي اختارت السماع: سماع القصائد وهذه الأبيات من الشعر، فحجتهم من الظاهر في ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام «**إن من الشعر حكمة**»[12].

وزعمت هذه الطائفة أنَّ القرآن كلام الله وكلامه صفته وهو حقٌّ لا يطيقه البشر إذا بدا، لأنه غير مخلوق لا تطيقه الصفات المخلوقة، ولا يزين بالنغمات المخلوقة، بل به تزين الأشياء، وهو أحسن الأشياء، ومع حسنه لا تستحسن المستحسنات. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ (القمر: 17) وقال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۝٢١﴾ (الحشر:21). فكذلك لو أنزله الله تعالى على القلوب بحقائقه، وكشفت للقلوب ذرة من التعظيم والهيبة عند تلاوته لتصدَّعت وذهلت ودهشت وتحيرت.

ولما رأوا في المتعارف بين الخلق، أنَّ أحدهم ربما يختم القرآن مرارا دون خشوع ولا رقة، فإذا كان مع القراءة صوتٌ حسنٌ، أو نغمةٌ طيِّبة شجيَّة وجد الرقة وتلذذ بالاستماع، ونفس الإحساس يكون للشعر لما يكون بالتطريب والصوت الحسن. ففيها موافقةٌ للطبع، وحظا للنفس، وتنعُّما للروح، لتشاكله بتلك اللطيفة التي جعلت في الأصوات الحسنة، والنغمات الطيبة، وكذلك الأشعار فيها معان دقيقة، ورقة وفصاحة ولطافة وإشارات.

وقد كره جماعةٌ من العلماء القراءة بالتطريب، ووضع الألحان الموضوعة على القرآن غير جائز عندهم، وإنما فعل من فعل ذلك لأنَّ الطبائع البشرية متنافرة عن سماع القرآن وتلاوته لأنه حق، فعلقوا على تلاوتهم هذه الأصوات المصوغة ليجتذبوا بذلك طبائع العامَّة إلى الاستماع، ولو كانت القلوب حاضرة، والأوقات معمورة، والأسرار طاهرة، والنفوس مؤدبة، وطبائع البشرية منخنسة، لما احتيج إلى ذلك.

قال أحمد بن مقاتل: «**لما دخل ذو النون رحمه الله تعالى بغداد اجتمع إليه جماعة من الصوفيَّة، ومعهم قوال يقول: فاستأذنوه أن يقول، فابتدأ يقول... فقام ذا النون وسقط على وجهه، والدم يقطر من جبينه، ولا يسقط على الأرض، قال: ثم قام رجل من القوم يعني يتواجد، فقال له ذو النون رحمه الله تعالى ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾(الشعراء:218)؛ فجلس ذلك الرجل**»[13].

نلاحظ هنا هذا الوجد الكبير الذي حدث مع ذو النون، وما حدث له من سقوط على وجهه، وسيلان الدم من جبينه، ثم هو في حالة من الوجد ولا يسقط في الأرض؛ حالة غريبة تحدث جراء هذا الوجد، وهي من نتائجها، ولا ريب أنَّ لنا تعليقا في المبحث الثاني على هذه الحالة.

المطلب الرابع: الكشف والمشاهدات

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق:37) يعني حاضر القلب.

وقال أيضا ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾ (البروج:3).

وقال أبو بكر الواسطي: «**فالشاهد الربُّ، والمشهود الكون: أعدمهم ثم أوجدهم**».

وقال أبو سعيد الخراز: «**فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه، وتلاشى كل شيء وغاب عند وجوب عظمة الله تعالى، ولم يبق في القلب إلا الله عز وجل**».

وقال أيضا: «**المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم.**

وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر، رضي الله عنه: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[14].

وأما قوله عزَّ وجل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٤٧﴾ (سبأ:47) فقالوا: هو مشاهدة الأشياء بعين العبر، ومعاينتها بأعين الفكر.... وقال أيضا: المشاهدة: حضور بمعنى قرب، مقرون بعلم اليقين وحقائقها.

وفي أكبر درجة من درجات العارفين في المشاهدة، يقول عمرو بن عثمان المكي في كتاب «المشاهدة»: «**إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين؛ وحاضرين غائبين، على انفراد الحق في الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهرا وباطنا، وباطنا وظاهرا، وآخرا وأولا، وأولا وآخرا، كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ (الحديد:3)**»[15].

و«**المكاشفة**» **في طريق العراقيين: أن يُكشَف له عن المغيبات فيحكم فيها وعليها، ويكشف له عن أحوال الخلق ولا يغيب عنه منهم شيء.**

وفي طريقة الخراسانيين: أن يكشف له عن عيوب النفس وخيانة السر، فلا يدخل عليه حالٌ إلا وهو يعرف صحَّته وسقمه، ولا يغفل عن ظاهره وباطنه.

وأما أحوال الحقائق في المكاشفة:

فمنهم من يُكشف له عن حاله، ومنهم من يُكشف له عن مُراده. ومنهم من يُكشف له عن عموم الأحوال، ولا يؤذن له في الإخبار عنها.

ومنهم من يُكشف له عن مراد الحق فيهم. ومنهم من يكون مكشوفاً، مأذوناً له في الإخبار عما كُشِف له من المَراقب التي خُصَّ هو بها، وخص بها سائر الأولياء.

وهذا دخل في محل الأمانة، والأمناء من الأولياء: هم النهاية في الولاية.

ثم يصح بعد ذلك حال المشاهدة:

والمشاهدة: أن يشهد الغيوب وما يجري فيها، ويشاهد فعل الله تعالى به، وفعلَه في الخلق، وما يرد ويصدر.

وأهـــــل المشـــــاهدة متبـــــاينون في مقامـــــاتهم على حسب تباين أهل المكاشفة»[16].

المشاهدة عند بعض منتسبي الصوفية تكون بالقلب والبصر، فمشاهدة الأشياء بعين العبر هي مشادة القلب، ومعاينتها بعين البصر لدلاتها على عظمة الله؛ فيقوم الصوفي بتعظيم الله تعالى بما يراه من عظمة خلقه.

ومن المشاهدة أيضا أن يشاهد الإنسان الغيوب، وما يجري فيها، ويشاهد فعل الله تعالى به، وفعلَه في الخلق، وما يرد ويصدر.

أما المكاشفة عند بعضهم، فتندرج فيها مكاشفة غيوب الناس فلا يخفى منهم شيء!، وعند بعضهم المكاشفة عن عيوب النفس وخيانتها؛ فما إن يدخل عليه شخص حتى يعرف سره وإعلانه، ومنهم من يحصر المكاشفة في ذات الشخص نفسه دون أن تتعدى إلى الآخرين.

المبحث الثاني: النقد الذاتي عند علماء الصوفية

قام كبار المتصوفة أمثال الغزالي وابن تيمية والطوسي، بنقد بعض العقائد الموجودة داخل مسلكهم، ممن أخطأ التفكير ولم يصب الحق فيما ذهب إليه، فكان هؤلاء العلماء الأجلاء هداةً للخلق إلى سبيل الحق، وسنذكر أهم آرائهم في المعتقدات التي تناولناها في هذا البحث:

المطلب الأول: القول بالفناء

قال الطوسي: «**وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم: إنهم عند فنائهم عن أوصافهم، دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم، بجهلهم، إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول، أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام... فالمعنى الصحيح من ذلك: أنَّ الإرادة للعبد، وهي من عند الله: عطية، ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق: خروجه من إرادته ودخوله في إرادة الحق، وبمعنى أن يعلم أن الإرادات: هي عطية من الله تعالى، وبمشيئته شاء، وبفضله جعل له ما بعطية ذلك قطعه عن رؤية نفسه حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى: وذلك منزل من منازل أهل التوحيد.**

وأما الذين غلطوا في هذا المعنى: إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم، حتى ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، ولكن يحل في القلوب الإيمان به، والتوحيد له، والتعظيم لذكره، بمعاني التحقيق والتصديق».[17]

وفي موضع آخر من نفس الكتاب يردُّ على هذه الطائفة قائلا:

«ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالَّة، أن تفرِّق بين البشرية وبين أخلاق البشرية، لأنَّ البشريَّة لا تزول عن البشر، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود، ولا لون البياض عن الأبيض؛ وأخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق؛ وصفات البشرية ليست هي عين البشريَّة، والذي أشار إلى الفناء: أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك.

وكذلك فناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر، والذي طبع في فناء البشرية: فناء البشرية طبع في ذلك، وفناء البشرية بالبشرية صفة من صفات البشرية....والله أعلم» (18).

يقول إبراهيم بن شيبان: **«علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وَصِحَّة الْعُبُودِيَّة، وَمَا كَانَ غير هَذَا فَهُوَ المغاليط والزندقة»** (19).

يقول الجويري في كتابه «المحجوب»، في شأن الفناء والبقاء:

«ولكل من المشايخ رضي الله عنهم في هذا المعنى لطيفة بالرمز: يقول أبو سعيد الخراز رضي الله عنه، وهو صاحب المذهب: "الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية"، أي أن في فعل العبودية آفة، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله، ويبقى برؤية فضل الله تعالى، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه، لأن ما هو مقرون بالعبد من فعله يكون كله ناقصا، وما هو موصول به من الحق

يكون كله كاملا، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته، فإنه يبقى بجمال إلهية الحق»[20].

والحق أن الباحث تأمل في كلام أبو سعيد الخراز رضي الله عنه، حينما قال: «**ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله، ويبقى برؤية فضل الله تعالى، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه**»، فإذا كان قصد الشيخ من ذلك هو ردُّ أفعال العبد كلها لله قولا وفعلا، أي لا يقول مثلا: قمت بكذا، لما ذهبت إلى كذا، وإنما يرد كل شيء قاله أو فعله لله ولمشيئته سبحانه، فإنَّ الباحث يرى أن هذا لا يتناسب مع فطرة الإنسان وطبيعته التي جبل عليها، وكذا يرى أن هذا رهبانية وغلو أكثر منه تقوى وورع؛ لأنَّ الإنسان بهذا التفكير يصبح كل ما يفعله ويقوله في حياته راجع إلى الله تعالى، والإنسان في حياته يقوم بأمور لا تليق بأن تنسب لله تعالى، ثم أنه بمرور الزمن وكثرة ردِّ الأفعال إلى الله، يسقط في متاهات هو في غنى عنها، وأذكر أني أعرف جماعة من الناس في يومنا هذا ينسبون كل أقوالهم وأفعالهم إلى مشيئة الله تعالى حين يتكلمون مع شخص آخر، فيقولون مثلا: أكلت بإذن الله، كتب الله أن أذهب إلى مكان كذا، قلت كذا بإذن الله، وفقني الله لفعل كذا... وهذا ليس من الشريعة السمحاء، وإنَّما رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم.

نحن لا ننكر إرجاع بعض أعمالنا لله قولا حين نتحدث مع الآخرين في بعض الأحيان، نظرا أنها مستقرة في القلب قصدًا ونية، أما أن نذكرها في كل حين قولا أثناء أحاديثنا مع غيرنا، فهذا ليس من

شريعتنا السمحاء، وليس من طبيعة وفطرة الإنسان، ويبقى الأصل وروح الأخلاق في النية والقصد، فليس من لم يرجع كل الأمور لله قولا، فهو بالتالي غير مخلص أو لم يصل إلى درجات الكمال في الإخلاص والله أعلم.

بيَّن أبو بكر الكلاباذي معنى الفناء والبقاء عند بعض الصوفية أنه الإخلاص التام لله تبارك وتعالى، فكل ما يفعله العبد المؤمن ينبغي أن يكون لوجه الله جل جلاله فقط، لا لأي منفعة أخرى، فعبادة الله عندهم تكون بقصد وجه الله، لأنه ربهم وخالقهم ومستحق للعبادة والذكر والقرب؛ «**فالباقي بالحق: الفاني عن نفسه: يفعل الأشياء لا لِجَرِّ منفعة إلى نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى: أنه لا يقصد في فعله جَرّ المنفعة ودفع المضرة؛ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها (بمعنى: القصد والنية)، ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما لله عليه، يفعله لله، لا لِطَمَع ثواب، ولا لخوف عقاب، وهما - أعني: الخوف والطمع - باقيان معه، قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى؛ لأنه رغَّب فيه، وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه إجلالا له، وموافقة له؛ لأنه خَوَّفَ عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل: المؤمن يأكل بشهوة عياله**»[21].

ويدل على هذه الرؤية شعر رابعة العدوية في حبها لله تبارك وتعالى:

أحِبُّــك حُبَّين: حــبَّ الهوى وحـباً لأنــَّـك أهــــلٌ لذاكَا
فأمَّا الــذي هو حبُّ الهوى فشُغلِي بذكرك عمَّن سِوَاكا
وأمَّا الـــذي أنتَ أهـــلٌ له فلستُ أرى الكونَ حتَّى أراكا
فما الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لِي ولكن لكَ الحمــدُ في ذَا وَذَاكَا

ذكر القشيري فيما ذكر أنَّ **الفناء يقصد به تركُ كلِّ ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ، وترك معاشرة الناس والعيش معهم، والاكتفاء بقرب الله جلَّ جلالُه، في زاوية من الزوايا، والاعتقاد بأنَّ كلَّ تصرُّف إنما هو من الله جلَّ جلاله، ولا قدرة للعبد ولا مشيئة له، إنَّما كلُّ شيءٍ من الله وبالله، فالبقاء معه فقط؛ ومن البقاء بقاء الصفات المحمودة به، وفيه، والفناء فناء العبد من الأوصاف المذمومة، وفناء مشيئة الإنسان.**

ولقد ذكر الكلاباذي نفس المعنى. أما قولهما أنَّ الفناء يقصد به ترك كل ما حرم الله عز وجل، فهذا صحيح، ومن صميم الشريعة السمحاء، أما قوله بترك معاشرة الناس والعيش معهم، والاكتفاء بقرب الله جل جلاله، في زاوية من الزوايا، فهذا لم يفعله لا الرسول القدوة عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا فعله الصحابة الكرام، ولا قالت به الشريعة السمحاء، بل بالعكس من ذلك، فإن رسولنا الكريم يوصينا بمخالطة الناس وحسن عشرتهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعمارة

الأرض، وحسن الاستخلاف فيها، فكل حركة يقوم بها الإنسان المؤمن في حياته، إنما تندرج ضمن الفناء في عبادة الله وحبه.

«عن أَنَسٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[22].

المطلب الثاني: السماع والوجد

أجاز كبارُ علماء الصوفية «السماع»، وبيَّنوا حدودَه، ما يحلُّ منه وما يحرُم، وعلى سبيل المثال أبي حامد الغزالي، والطوسي.

«وفي بيان معنى السماع وجماله عند المتصوِّفة، عن أبي الحسين الدراج كان يقول: جال بي السماع في ميدان من ميادين البهاء، فأوجدني في وجود الحق عند العطاء، فأسقاني بكأس الصفاء، فأدركت به منازل الرضا، وأخرجني إلى رياض النزهة والفضاء».

و**«سئل الشبلي رحمه الله كما بلغني عن السماع، فقال: السماع ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية».**

وقد ذم الله تعالى الأصوات المنكرة بقوله عز وجل: إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ. وفي ذمه الأصوات المنكرة محمدة للأصوات الطيبة.

وقد تكلم الحكماء في معنى الأصوات الحسنة، والنغمات الطيبة، وأكثروا في ذلك، فقال ذو النون، رحمه الله، وقد سئل عن الصوت الحسن، فقال: مخاطبات وإشارات إلى الحق، أودعها كل طيب وطيبة.

وعن يحي بن معاذ الرازي، أنه قال: الصوت الحسن روحة من الله تعالى، لقلب فيه حب الله تعالى، وقال آخر: النغمة الطيبة روح من الله تعالى، يروح بها قلوبا محترقة بنار الله تعالى.

ومن اللطيفة التي جعل الله في الأصوات الطيبة: أن الطفل في المهد يبكي لوجود ألم، فيسمع الصوت الطيب فيسكت وينام.

وقال الشيخ رحمه الله: ومن السر الذي جعل الله في الأصوات الطيبة التي فيها انداء: ترى في البوادي إذا عييت الجمال، وقصرت عن السير: يحدو لها الحادي، فتستمع وتمد أعناقها وتصغي بآذانها نحو الحادي، وتجود في السير، حتى تتزعزع محاملها من شدة سيرها.

وفي بيان حله قال البندار بن الحسين: «...كل من سمع السماع من طريق الطيبة والتلذذ بالنغمة واستحسان الصوت فليس ذلك محرما عليهم ولا محظورا، إن لم يكن قصدهم في ذلك الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود، إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ: ومما يستدل بذلك على إباحة السماع قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ (الذاريات:21) وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ٥٣﴾ (فصلت:53) وما أرانا الله في أنفسنا، وأبصرنا ذلك في الحواس الخمس التي قد يميز بها بين الشيء وضده، كالعين تميز بالنظر بين الحسن والقبيح، والأنف يميز بين الرائحة الطيبة والمتنتة، والفم يميز بالذوق بين الحلاوة والمرارة، واليد تميز بالمس بين اللين والخشن، وكذلك الأذن تميز بين الأصوات الطيبة وغير الطيبة والمنكرة.

قال الله تعالى:﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ (لقمان:19) ففي مذمته للأصوات المنكرة محمدة للأصوات الحسنة، ولا يميز بينهما إلا بالسماع وهو الإصغاء والاستماع بحضور القلب، وإدراك الفهم، وإزالة الوهم.

ولما صح جواز الإنشاد للشعر، فسواء كان إنشاده بالنغمة الطيبة والصوت الحس، أو يكون إنشاده بالحدو، والحدر، والنصب، والرمل، والرجز، إذا لم يكن لذلك مقاصد فاسدة، وإرادة باطلة، ومجاوزة الحد، ومخالفة ومعاندة، والله أعلم»[23]

«وقد حكي عن الجنيد أنه قال: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وإنما يضر فضل الوجد مع نقصان العلم، والمعنى في ذلك، والله أعلم أن أفضل العلم يوجب ضبط الجوارح، عن الحركات عند السماع على قدر طاقة المستمع حتى يفيض على جوارحه بعد جهده، وليس من الأدب استدعاء الحال والتكلف للقيام، والفقراء المجردون يليق بهم القيام

والمطايبة من غير تذاهب ولا تساكن إلى ذلك، وتركه أولى في ذلك، وليس من الأدب المداخلة والمزاحمة في السماع مع أهل السماع، والسكون مع حضور القلب والوقوف على مرامي المستمعين ومعانيهم أولى من المداخلة معهم بالتكلف، وربما يصير التكلف عادة فيكون ذلك أغلظها على القلوب وأظلمها للوقت، وكل قلب ملوث بحب الدنيا، فسماعه لهو، وإن تلفت نفسه فيه وذهب روحه»[24].

وقد اشترط الطوسي أنه لا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله وصفاته، حتى يضيف إلى الله ما هو أولى به، ولا يكون قلبه ملوثا بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة، ولا يكون في قلبه طمع في الناس ولا تشوف في المخلوقين، مراعيا لقلبه، حافظا لحدوده، متعاهدًا لوقته، فإذا كان كذلك يسمع ما يكون داخلا في صفة التائبين والقاصدين، والطالبين، والمنيبين والخاشعين والخائفين، ويسمع ما يحثه على المعاملة والمجاهدة... ولا يسمع للاستطابة و التلذذ: لكيلا يصير عادته فيشغله عن عبادته ورعاية قلبه، فإن لم يكن كذلك يجب عليه ترك ذلك[25].

ودائما مع أقوال أئمة الصوفية السنيين الذين صحَّحوا منهج التصوُّف من شوائبه وأكداره، فهذا الغزالي يوضح لنا الحالات التي يحرُم فيها السماع، وهي خمسة:

«أمَّا الأولى ففي المسمع أن تكون امرأة لا يحل النظر إليها، فيخشى الفتنة من سماعها، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته.

أمَّا الثانية ففي الآلة بأن تكون من شعار أهل الشرب، أو المخنثين، وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاث أنواع ممنوعة. وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّف، وإن كان فيه الجلاجل، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب، وسائر الآلات.

أما الثالثة فهو نظمُ الصوت وهو الشعر: فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، أو ما هو كذب على الله تعالى، وعلى رسوله، وعلى أصحابه رضوان الله عليهم كما فعل الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرامٌ، بألحان وغير ألحان، وكذلك ما فيه وصفٌ لامرأة بعينها، فإنَّه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال، وأما هجاء الكفَّار وأهل البدع فذلك جائز، أمَّا النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة، وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمُه، وإنشادُه بلحن وغير لحن، وعلى المستمع أن لا يُنزله على امرأة بعينها، فإن نزله فلينزلها على من يحل له من زوجته وجاريته، فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل، وإجالة الفكر فيه، ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأسا.

أمَّا العارض الرابع في المستمع: وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه، وكان في غرَّة الشباب، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها، فالسماع حرام عليه، سواء غلب على قلبه حبٌّ شخص معين أو لم يغلب عليه.

أمَّا العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق، ولم يغلب عليه حبُّ الله تعالى فيكون السماعُ له محبوبًا، ولا غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظورًا، ولكنه أبيح في حقِّه كسائر أنواع المباحات، إلاَّ أنه إذا اتَّخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذي تردُّ شهادتُه، فإنَّ المواظبة على اللهو جناية»[26].

المطلب الثالث: المشاهدة والحضور والمكاشفة

«يقول القشيري :المحاضرةُ ابتداءًا، ثم المكاشفة، ثم المشاهدة.

فالمحاضرة: حضورُ القلب. وقد يكون بتواتر البرهان، وهو بعد وراء الستر، وإن كان حاضراً باستيلاًء سلطان الذكر.

ثم بعده المكاشفة: وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل، وتطلب السبيل، ولا مستجير من دواعي الريب. ولا محجوب من نعت الغيب.

ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة.

فإذا أصحت سماء السرِّ عن غيوم الستر، فشمسُ الشهود مشرقةٌ عن برج الشرف، وحقٌّ المشاهدة ما قاله الجنيد، رحمه الله: وجود الحق مع فقدانك: فصاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته: وصاحب المشاهدة ملقى بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته.

ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله.

ومعنى ما قاله: أنه تتوالى أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخلَّلها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق، فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها واتصالها، إذ قدر تصير في ضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متع نهاره فلا ليل»[27].

وكسائر أخلاق الصوفية نجد الكشف والبقاء مندرجان ضمن الإخلاص التام لله تبارك وتعالى، فكلما عظم الله تعالى في قلب العبد، ولم يكن فيه سواه فإن ذلك العبد من المقبولين والمخلصين، ومن أوليائه الصالحين.

ذكرنا من قبل أنَّ بعض الصوفية يرى أنَّ المشاهدة تكون بالقلب والبصر، فمشاهدة الأشياء بعين العبر هي مشاهدة القلب، ومعاينتها بعين البصر لدلالتها على عظمة الله، فيقوم الصوفي بتعظيم الله تعالى بما يراه من عظمة خلقه، وهذا صحيح، ذلك أنه من معاني آيات التفكر في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾**﴾(آل عمران:190-191).

ومنهم من يرى أن المشاهدة، أن يشاهد الإنسان الغيوب، وما يجري فيها، ويشاهد فعل الله تعالى به، وفعلَه في الخلق، وما يرد ويصدر؛ فتندرج فيها مكاشفة غيوب الناس فلا يخفى منهم شيء!، وعند بعضهم المكاشفة عن عيوب النفس وخيانتها؛ فما إن يدخل عليه شخص حتَّى يعرف سرَّه وإعلانه، لكن لا نوافق هؤلاء الصوفيَّة فيما ذهبوا إليه من كشف الغيب، وخاصَّة الغيب الخاص بالآخرين لأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، إلا ما كان مندرجا ضمن إرادته وحكمته سبحانه وتعالى.

أمَّا من يحصر المكاشفة في ذاته وحده دون أن تتعدَّى إلى الآخرين، فإن كل نفس عالمة بما كسبت.

المطلب الرابع: الحلول

قال الشيخ الطوسي:

«بلغني أنَّ جماعة من الحلولية، زعموا أنَّ الحق تعالى ذكره اصطفى أجساما حلَّ فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني الربوبية.

فإن صح عن أحد أنه قال هذه المقالة، وظن أنَّ التوحيد أبدى له صفحته بما أشار إليه، فقد غلط في ذلك، وذهب عليه أنَّ الشيء في الشيء مجانسٌ للشيء الذي حلَّ فيه، والله تعالى بائنٌ من الأشياء، والأشياء بائنة منه بصفاتها، والذي أظهر في الأشياء: فذلك آثار صنعته ودليل ربوبيته؛ لأنَّ المصنوع يدلُّ على صانعه، والمؤلف يدل على مؤلفه.

وإنَّما ضلت الحلولية، إن صح عنهم ذلك؛ لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي هي صفة القادر، وبين الشواهد التي تدل على قدرة القادر وصنعة الصانع، فتاهت عند ذلك... فمن صحَّ عنه شيء من هذه المقالات فهو ضالٌّ بإجماع الأمَّة، كافرٌ، يلزمه الكفر فيما أشار إليه»[28].

عقيدة الحلول من أعظم البدع والفساد الذي ابتُلي به بعض المتصوِّفة، فهذا من عظيم الكبائر والعياذ بالله، ولقد قام العلماء الأجلاء بالرد على هذه العقيدة الضالَّة، وكشف فسادها مثل ما ردَّ الطوسي رحمة الله عليه.

المطلب الخامس: الزهد

يُعرِّف الغزالي الزاهد بقوله: «**من أتته الدنيا راغمةً صفوًا عفوًا، وهو قادرٌ على التنعُّم بها من غير نقصان... فتركها خوفًا من أن يأنسَ بها فيكون آنسًا بغير الله، ومحبًّا لما سوى الله، ويكون مشركًا في حبِّ الله تعالى غيره، أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة، فترك التنعُّم بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة، وقس على ذلك، وكلُّ ذلك خوفا من أن يقال له: «أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا»، فآثر جميع ذلك ما وعد الله به في الجنة على ما تيسَّر له في الدنيا، عفوًا صفوًا لعلمه بأنَّ ما في الآخرة خير وأبقى وأنَّ ما سوى هذه فمعاملات دنيويَّة لا جدوى لها في الآخرة أصلا**»[29].

اختلف مفهوم الزهد عند كبار الصوفية، فأما الذين يرون بأنه ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى، فهذا على حسب إيمان العبد، ذلك أن المؤمن الحق يرى الله في كلِّ أموره فلا يشغله شيء عن الله، وآخر يرى

أنه بغض أهل الدنيا ومن فيها، وهذا التعريف غال جدا ولا يتناسب مع وسطية الإسلام وتعاليمه، ومنهم من يرى أنه ترك الدينار والدرهم، وهذا كذلك لا يمكن ولا يعقل!، وآخر يقرر أن الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب، وهذا تعريف مناسب وجامع، لأن الدنيا عندما يملكها الإنسان في يده وليس في قلبه فهذا قمة الإيمان.

القشيري يورد بعض التعريفات للزهد فيقول:

«ومنهم من قال: إذا أنفق العبد ماله في الطاعة، وعلم من حاله الصبر، وترك التعرض لما نهاه الشرع حالة العسر، فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم».

ومنهم من قال: «ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعي القسمة، فإن رزقه الله سبحانه وتعالى مالا من حلال شكره، وإن وفقه الله تعالى على حدٍّ الكفاف لم يتكلَّف في طلب ما هو فضول المال فالصبر أحسن بصاحب الفقر، والشكر أليق بصاحب المال الحلال».

وقال أحمد بن حنبل: «الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام.

الثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص،

الثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهو زهد العارفين»[30].

فالتعاريف التي أدلى بها القشيري في كتابه والتي اخترناها تُعتبر الأقرب إلى وسطية الإسلام ورحمته وسعته.

الخاتمة

توصل الباحث أثناء بحثه في هذا الموضوع إلى نتائج هي:

1. تمتلك فرقة الصوفيَّة منهج النقد الذاتي في كلٍّ من ينتمي إلى طريقتها، فتقرُّ وتؤكِّد على ما يُناسب الشريعة السمحاء، وتصحِّح وتنهى عن كل ما يخالف دين الله عز وجل، وبالتالي فإنَّ هذا المنهج الذاتي يحسب لها، ويجعلها دائما مقياسا للجانب الروحي في الإسلام، ومثالا للمسلم الذي يحبُّه الله ورسوله والمؤمنين.

ومن هذا نقول بأنه في البحث العلمي ينبغي أن نتناول أي فرقة أو أي طريقة كالصوفية من مصادرها الأساسية، ومن علمائها الربانيين الذين اتخذوا القرآن والسنة دليلا لهم في عقائدهم وأخلاقهم.

2. عقائد الصوفيَّة وأخلاقهم لها مصطلحات مميزة خاصة بهم، كالسماع والوجد، الفناء والبقاء، الكشف والمشاهدات، الحلول، وغيرها، وكان لكبار العلماء دور هام في توجيه وتصحيح هذه العقائد فيما خالف فيها شرع الله، ومن هذا نقول بأن ما أقره العلماء الأجلاء فهو من الشريعة السمحاء ولو اختلف المصطلحات، فالمدلول واحد، أما ما خالف الشريعة فإن العلماء الصوفيين أنفسهم قاموا بردها وإثبات فسادها.

3. الصوفية منهاج وطريقة روحية علمية تعبدية نهجها كبار العلماء والعباد، ولها أصولها وخصائصها، إلا أنه دخل عليها الكثير من المتصوفة المبتدعة، وابتكروا فيها عقائد وأخلاق لا توافق الشريعة السمحاء، فما نجده من كلام أحدهم في بعض الكتب فإنه لا يمثل الصوفية بأكملهم، وبالتالي لا ينبغي أن نحكم على ضلال التصوف بضلال بعضهم. وكل يأخذ منه ويرد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. صحيح البخاري.
3. صحيح مسلم.
4. الرسالة القشيرية، القشيري.
5. إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي.
6. الغنية، عبد القادر الجيلاني.
7. الكنز في المسائل الصوفية، صلاح الدين القجاني.
8. الفتوحات المكية، ابن عربي.
9. اللمع، أبي نصر السراج الطوسي.
10. التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر الكلاباذي.
11. سلوك العارفين، السلمي.
12. طبقات الصوفية، محمد النيسابوري السلمي.
13. كشف المحجوب، الجويري.

إحالات الدراسة:

(1) . أبو حامد الغزالي، الإحياء، ج5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ص89.

(2) . عبد القادر الجيلاني، الغنية، ج2، ط2، دار صادر، بيروت، 2010، ص 183.

(3) . أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، ج1، دار المعارف، القاهرة، ص241/ 242.

(4) . صلاح الدين القجاني، الكنز في المسائل الصوفية، د.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص350

(5) . الغزالي، أبي حامد، الإحياء، ج2، ط1، دار الفكر، دمشق، 2006، ص 862، 863.

(6) . ابن عربي، الفتوحات المكية، ج62،دط،ص1169.

(7) . أبي نصر السراج الطوسي، اللمع،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2001 ، ص44/ 45.

(8) . القشيري، الرسالة، مرجع سابق، ص 170/ 171.

(9) . الطوسي، المرجع نفسه، ص543.

(10) . أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف. د م ط.

(11) . نفسه.

(12) . البخاري، الصحيح، باب ما يجوز من الشعر والحذاء..، تحق :محمد زهير بن ناصر الناصر، ج8، ط1، دار طوق النجاة، ، 1422، ص 34.

(13) . الطوسي، مرجع سابق، ص 246.

(14) . البخاري، الصحيح، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، تحق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ج1، ط1، دار طوق النجاة، 1422ه، ص19.

(15) . الطوسي، المرجع السابق، ص 100/ 101.

(16) . السلمي، سلوك العارفين. دم ط.

(17) . الطوسي، مرجع سابق، ص384.

=

=

(18) . الطوسي، المرجع السابق، ص543.

(19) . محمد النيسابوري السلمي، طبقات الصوفية، تحق: مصطفى عبد القادر عطا، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 304.

(20) . الجويري، كشف المحجوب، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، ص485، 486.

(21) .

(22) . مسلم، الصحيح، حديث(1401)، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ص1020.

(23) . أنظر الطوسي، اللمع، المرجع السابق، ص 240/ 244.

(24) . الطوسي، اللمع، مرجع سابق، ص172.

(25) . المرجع نفسه، ص253.

(26) . انظر الغزالي، الإحياء، ج2، ط1، دار الفكر، دمشق، 1427ه، ص 1371/ 1375.

(27) . القشيري، الرسالة، ص83.

(28) . الطوسي، اللمع، مرجع سابق، ص 541.

(29) . الغزالي، الإحياء، ج4، مرجع سابق، ص 214.

(30) . القشيري، الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص218/ 222.